

سعيد في أطوار حياته

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأربعين

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 - 29 أبريل سنة 1942

العلامة أبو بكر زنيير

لو قدر لي أن أكون شاعرا خياليا أو رساما فنانا وطلب مني أن أمثل روح النشاط في الشباب لما عدوت تصويره بينهم بشعلة ملتهبة شبت في قلوبهم فملكتم عليهم سائر الحواس والمشاعر، ولو طلب مني مع ذلك أن أصف خفة روحهم وسرعة استجابتهم لمقتضيات الحوادث وتطورهم مع الزمان والمكان لما تجاوزت بالطالب الريح المرسل. ولو قيل لي ثالثا أين وجدت هذه الخصال كلها لما توجهت بقلبي وقلبي إلى فقيد المغرب المحبوب من كافة الطبقات سعيد حجي رحمه الله، وقلت ها هنا اجتمعت وما انفتحت لأحد غير سعيد، وما أدراك ما سعيد، تفضلت به الأيام بعد شح منها بأمثاله في الأزمنة المتطاولة. ألم يكن أول باعث لحركة الشباب من مرقدها؟ ألم يكن طليعة من أوقد جذوة نارها؟ بلى هو ذلك الشاب النشيط، ولو تقدم بحركته هذه زمنها بكثير لقلت فيه إنه ذلك الصبي المحنك، والتحنك في الصبيان من المعجزات، إذ بدأ حركته هذه وهو دون سن العشرين من حياته، وقبل أن يتعاطى الدراسة المهمة خارج وطنه.

فقد ولد فقيدنا رحمه الله في رابع ربيع الثاني سنة 1330 الموافق 23 مارس سنة 1912 وتزعم هذه الحركة المباركة في ثاني ربيع سنة 1349 الموافق لسنة 1930. ولم تطل إقامته بالمغرب بعد ذلك حيث ترك استتمام الحركة لغيره وعمل لرحلة للمشرق لمزاولة العلم هناك، فدخل كلية بيروت ثم جامعة دمشق ثم جامعة مصر، ولما قضى منحه من ذلك أخذ السير راجعا لبلاده موطننا العزم على العمل على ترقية وطنه، وما سلم حتى أخذ في العمل من أجل ذلك فأتم أيام حياته وكلها جهاد في شأن وطنه إذ قارع الحوادث

والخطوب بسيفى العزيمة والصبر حتى خر صريعا مجالدا في ساحة الشرف والعزة، والله لا يضع من أحسن عملا، والموت باب وكل الناس داخله. ليس وجدنا من أقطاب الشبيبة من هو أصلب من سعيد عودا وأشد شكيمة وأقوى مراسا على الحوادث والأيام، فقد وجدناه هو يفوقهم فيما كان المغرب في حاجة إليه، أكثر من ذلك وجدناه يفوقهم في سرعة التطور للمصلحة والتقلب بمقتضيات الحوادث وفي ابتكار المشاريع المفيدة.

ما أظن الصحافة التي سمتها كافة المغاربة اليوم ويرتزقون منها إلا في صحيفته وبحسن سلوكه وسياسته إذ قد قرعنا هذا الباب قبله بأزمان وقرعه غيرنا فلم يفتح لأحد منا؛ فلما رجع سعيد من دراسته وهو ممتلى عزيمة وإيمانا أن لا شيء من المستحيل أمام صدق النية والإخلاص في العمل وعمل الأسباب المفيدة في فتح هذا الباب، انفتح له ولغيره دفعة واحدة، وكان رحمه الله قد حدثني أثناء حديث دار بيننا يوما من الأيام أنه كان يتعاطى الدراسة بالشام مع مدير مجلة الأمامي الآن بالشام، ولما انفصلا عن بعضهما عقدا النية على أن يقوموا بمهنة الصحافة لفائدة وطنهما فحققا أملهما في ذلك.

وبعد ما خاض رحمه الله معمعة الصحافة وقف اجتهاده وتفكيره وسن المصلحة العامة فلم يتخذ حرفته مهنة للتجار والارتزاق إذ مر عليه زمان ليس بالقصير وما أظن أن مداخيله توفي بمصاريفه، بل ما أظن المصاريف إذك إلا تضاعف المداخل لقلة إقبال الناس على الصحافة حينذاك وكثرة المصاريف التي يستدعيها التأسيس والإنشاء، ومع ذلك فقد كان واثقا من نفسه ومن أعماله، يتلقى الصعاب التي تعترضه في سبيله بجنان ثابت وصدر رحب ووجه طلق غير مكترث لها ولمشقتها حتى أثمرت أعماله أيما الثمار.

ومن شدة حرصه على الفائدة لقومه أنه نوع صحافته إلى نوعين: نوع للأخبار وما شاكلها، ونوع للتهذيب الفكري الذي سماه في ابتداء أمره (ملحق المغرب) وأخرا (الثقافة المغربية) واستعان بكثير من الكتاب المغاربة على تحريره؛ ثم انهمك في إدارتهما وتحريرهما معا وشغل بهما جل أوقاته وتفكيره؛ فكان يزورني رحمه الله في

بعض الأحيان لهذه الغاية فألاحظ منه التقشف في جسمه وملبسه مع أنه كان من عائلة كريمة موسرة، وأتحدث مع والده فيخبرني أنهم يعرضون عليه بالدار ثيابا فاخرة المقصب بالحرير وغيره فيأبى ذلك. فيذكرني حاله رحمه الله من سيطرة اهتمامه بأمر وطنه عليه ما كنت قرأته في بعض المجلات وتحمس الشباب ببعض الأقطار وعن أعمالهم في سبيل نهضة بلادهم وتركهم الملاذ من أجل ذلك، وذلك أن بعض الكتاب بهذه المجلة ذكر أنه بينما كان بأنقرة عاصمة الأترك استوقفه شاب قصير القامة عريض ما بين المنكين يلبس لباس الكشافة ويديه كتلة كبرى من الجرائد وجبينه يتصبب عرقا في شدة الحر من تعب التطواف بتلك الجرائد، وقال له: هذه جريدة الشباب يا سيدي، فهل لك أن تشجعنا باتباع نسخة، إننا نحن الشباب نقوم بتحريرها والإنفاق عليها وتوزيعها على الناس في سبيل تعزيز فكرة الشباب فهل لك بنسخة. قال: ثم مرت بي أيام وإذا بي أنا بالقطار ألتقي مع ذلك الشاب نفسه وإذا بهيأته وركوبه الدرجة الأولى وأكله الدجاج وتوزيعه الحلواء على رفقائه في السفر يدل على أنه من أكرم عائلات قومه وأيسرها.

ولقد كان فقيدنا رحمه الله يحب النظام والتطور على مقتضى سنن النشوء والارتقاء فكان يبدئ أعماله وهي صغرى بسيطة ثم يتدرج فيها إلى أن تكبر وتنمو أشد نمو، ولذلك لم نر له فشلا في أعماله قط، وذلك كجريدته « المغرب » حيث ابتدأها في كاغد رديء ثم صار يتدرج فيها من طور إلى طور إلى أن اشتد ساعدها وصارت يومية تصدر في الكاغد الذي يصدر به سائر الجرائد بالمغرب، وك (ملحق المغرب) حيث كان يصدر في أوراق بسيطة من الورق الرديء وفي غلاف بسيط رديء ثم صار الآن بدله (الثقافة المغربية) تصدر في ورق حسن وسندام حسن، وكمطبعته حيث ابتدأ عمله فيها بشراء مطبعة صغرى مستعملة على قدر حالة جريدته وحاجتها في ابتداء أمرها وما زال يتدرج فيها وفي تحسينها إلى أن حصل بالشراء على مطبعة تعد أكبر المطابع العربية ومن أكبرها بالمغرب، وبعد أن كانت مطبعته الصغرى التي كانت في سلا بموضع بسيط مهمل للغاية

لا تتجاوز مساحته الخمسة عشر مترا ولا يتسع لأكثر من عاملين أو ثلاثة انتقلت لفسحة المامونية بالرباط التي تعد من أكبر الشوارع وأهمها بالعاصمة وموضع الحركة المهمة منها وصارت تعمل بإزاء مطبعته الكبرى هناك وشغلا معا مكانا فسيح الأنحاء متسع الأرجاء يعمل فيه عدد وافر من العمال، وصار مطبعة عامة للجريدة وغيرها، وكمكتبته للجريدة حيث اتخذها أولا بسيطا بعمارة لوالده بفسحة سيدي التركي من مدينة سلا، ثم انتقل به إلى عمارة كبرى خارج باب فاس أحد أبواب سلا، وما زال بها إلى أن انتقل إلى شارع دار المخزن أهم شوارع العاصمة الرباطية فاتخذ مكتبه هناك إلى أن ختمت أنفاسه الطيبة. ومع ما ذكرناه من حكمة التدرج في أعماله فقد كان أيضا حكيما في اجتذاب القلوب إليه وتحببه للناس وتحبيب الناس إليه حتى التف حوله الكثيرين من خيرة شباب المغرب من محررين في جريدته وكتاب ومنظمين وطابعين وبائعين وغيرهم، وبالجملة فقد كان فقيدا حكيما في أعماله موقفا فيها ولذلك كانت مهامه لا تخطئ الغرض منها.

والآن ونحن أمام أمر الله الذي لا مرد له فيه والذي لم ينفع معه علاج الأطباء ولا عزائم الراقيين وإنما نفع فيه صبر الصابرين وكظم غيظ المصابين ينبغي لنا ولا سيما لأسرته وأسرته شباب المغرب أن تدرع في شأنه بالصبر الجميل وأن يهب الجميع ما كان يناط منه من النفع المعنوي في شأن وطنه لله الواهب تلك الفضيلة إليه وأن يتمموا بعد مماته ما كان بدأه من الأعمال في حياته وأن يسيروا على الطريق المستقيم الذي كان يسير عليه، وأن ينهضوا بكل من جريدته ومجلته نهضة قيمة، فإننا قد أحسنا بعد مرضه بما أصابها من الفتور والضعف في الجملة لا سيما المجلة، وأن يرجوا له من الله أن يدخله في زمرة قوله تعالى (يستبشرون بنعمة من الله وفضله والله لا يضيع أجر المومنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) .